

ولست أدري لماذا اخترت هذا اللون بعينه من هذه الألوان الأدبية التي يقدمها إلينا فولتير، ولكنني أعلم أنني كنت أسأل نفسي وأنا أقرأ قصص فولتير عما يمكن أن يكون حظ هذا الرجل العظيم من التحليل النفسي ومن تليل ما يحدث أشخاصه من الأحداث وما يعرض لهم من الخطوب . وكنت أحاول أن أضعه في طبقه من طبقات الكتاب هذه التي نعتمدها في العصر الحديث أساساً للتقسيم والتصنيف . فمن الكتاب من يستغرق همه كله في تحليل دقائق النفس حين تفكر وحين تشعر وحين تعمل . ومن الكتاب من يفرغ همه في تحليل الصلات بين الناس فيتجه إلى الناحية الاجتماعية من الحياة الانسانية . ومنهم من يعنى بغير هاتين الناحيتين من نواحي الفن الذي يصدر عنه الكتاب ويقصدون إليه فيما يكتبون .

كنت إذاً أحاول أن أضع فولتير القاص في طبقة من هذه الطبقات دون أن أبلغ من ذلك ما أريد ، فهو لا ينحاز إلى طبقة دون طبقة ولا يضاف إلى فريق دون فريق ، ولعله أن يشارك في خصائص هذه الطبقات جميعاً . والشئ المحقق هو أنه لم يفكر في شئ من ذلك . ومن يدري لعل معاصريه لم يكونوا يفكرون في شئ من ذلك ، وإنما كانوا يصدرون عن طبائع في غير تكلف ولا تصنع يرسم لهم الفن نفسه مذاهبهم في القول وطرائقهم في التصوير والتعبير .

على أن هناك حقيقة واضحة معروفة ، وهي أن القصص عند فولتير لم يكن غاية تطلب لنفسها وإنما كان وسيلة يبتغيها الكاتب ليصل بها إلى غرض من الأغراض الفلسفية ، سواء أكان هذا الغرض متصلاً بما بعد الطبيعة أو بالنظام السياسي أو بالنظام الاجتماعي أو بالنظام الديني أو بكل هذه الأشياء جميعاً . وإذا كان القصص نفسه وسيلة لا غاية ، فمن الطبيعي أن يكون الأشخاص الذين تجرى على أيديهم أحداث هذا القصص وسائل لا غايات . فإذا عرض علينا فولتير شخصاً من الأشخاص الذين يعملون أو يتأثرون في قصصه فطبيعة هذا الشخص لا تعنيه ، ولا تعنيه الخصائص التي تأتلف منها هذه الطبيعة ، وإنما الذي يعنيه هو ما يصدر عن هذا الشخص من قول أو عمل وما يلم بهذا الشخص من حدث أو خطب ، وما يكون لهذه الأقوال والأعمال والأحداث والخطوب من أثر في حياة الناس .

ومن أجل هذا كانت الأشخاص في قصص فولتير وسائل من جهة ورموزاً من جهة أخرى . رموزاً لهذه الأغراض التي كان يسعى إليها وهذه الآراء التي كان يريد أن يثبتها أو أن ينفيها . ومن أجل هذا أيضاً كان فولتير يتخذ لبعض قصصه عناوين ، أحدهما الشخص الذي اتخذ رمزاً ، والآخر الفكرة التي أراد أن يرمز إليها . فقصة « كانديد » تسمى كانديد أو التفاؤل ، وقصة « زاديغ » تسمى زاديغ أو القدر ، وعلى هذا النحو .

أشخاص فولتير إذاً ليسوا أفراداً من الناس يعملون كما نعمل ويشعرون كما نشعر ويحسون كما نحس ويتأثرون كما نتأثر ، وإنما هم أشخاص قد خلقهم خيال فولتير وعقله خلقاً . وقد استمدهم هذا العقل وذلك الخيال من المعاني التي قصد إليها وأراد تصويرها أكثر مما استمدهم من الحياة الواقعة التي يراها كل إنسان والتي يستطيع كل إنسان أن يلاحظها من قرب وأن يتناولها بالنقد والتحليل والتعليل . ولعل من الخصال التي تفوق فيها فولتير تفوقاً ظاهراً انتهى به إلى براعة فنية لا يدانيه فيها كاتب فرنسي آخر أنه لا يحصل كثيراً بالحياة الواقعة ولا يقف عندها إلا بمقدار . فهو يأخذ منا ما يحتاج إليه ويضيف إليها ما يحتاج إليه أيضاً ، مزدرياً هذا المنطق الطبيعي الذي تفكر به وتتخذ مقياساً لتصورنا للأشياء وحكمنا عليها . فهو لا يحفل بالزمان ولا بالمكان ، وهو من أجل ذلك لا يحفل بالتاريخ ولا بالجغرافيا ، وهو لا يحفل بالطبيعة التي يمكن أن تلاحظ ولا بالخرافات التي ليس إلى ملاحظتها من سبيل . وهو لا يحفل بما يوجد بيننا بالفعل ولا بما ليس له وجود . وإنما يأخذ من هذا كله ما يريد ، ويرتب هذا كله كما يريد ، ويقدم لنا منه مزاجاً رائعاً نعجب به أشد الإعجاب ولا نستطيع أن ننكر منه شيئاً ؛ لأن إنكارنا لا يؤثر في الفكرة الأساسية التي أراد أن يعرضها علينا . فأميرة بابل مثلاً تعيش في أقدم العصور التاريخية بل تعيش في أقدم العصور الانسانية قبل أن يوجد التاريخ ، وهي مع ذلك تطوف في أقطار الأرض وتتخذ للتنقل وسائل منها ما يلائم الأساطير ، ومنها ما يلائم العصر الذي كان فولتير يعيش فيه . وهي تزور مدناً لم تنشأ إلا في عصور متأخرة جداً وتشهد أجيالاً من الناس لم يوجدوا إلا بعد أن تقدمت الحضارة الانسانية حتى انتهت إلى الطور الذي انتهت إليه في القرن الثامن عشر الفرنسي .

هذه الأميرة تعيش في مدينة بابل التي وصفها الأساطير، وهي تعيش قبل سيمراميس بقرون طويلة. وقد أراد أبوها الملك أن يبعي لها زوجاً فقصر أن يجرى مسابقة بين الملوك قوامها أن يشد المتسابقون قوس نمرود وهي قوس لا يتاح لأوساط الناس ولا للمتفوقين منهم في القوة أن يشدوها. فأبهم قدر على أن يشد هذه القوس فعليه بعد ذلك أن يقهر أسداً لم تعرف الدنيا مثله قوة وبأساً وعنفاً. فاذا قهر هذا الأسد فعليه بعد ذلك أن يقدم إلى الأميرة هدية نادرة لم يعرف العالم مثلها قط. وقد أقبل ملوك ثلاثة للاشتراك في هذه المسابقة، أحدهم فرعون جاء يركب الثور أبيس وهو يقدم إلى الأميرة هدايا من تماسيح النيل وجرذان الدلتا. والثاني ملك الهند جاء يركب فيلا هائلاً تتبعه فيلة كثيرة تحمل من طرف الهند ما عرف الناس وما لم يعرفوا. والثالث ملك السيتيين من أهل البادية في شرق أوربا وجنوبها جاء ومعه أصحابه يمتطون أجود الخيل وأعرقها في النسب، ويحملون من طرف باديتهم الشيء الكثير. وقد احتفلت بابل بمقدم هؤلاء الملوك احتفالاً رائعاً واحتفت بهم احتفاءً عظيماً. حتى إذا كان اليوم المشهود اجتمع الناس ليشهدوا هذه المسابقة. وقد اجتمع منهم في المدرج أكثر من نصف مليون. وجلس الملك في مقصورته ومن حوله وزراؤه ورجال قصره، وجلست الأميرة في مقصورتها ومن حولها وصانقها، وجلس كل ملك من الملوك الثلاثة في المقصورة التي أعدت له، ومع كل واحد منهم حاشيته، ودار على النظارة جيش ظريف قوامه عشرون ألفاً من العذارى الحسان يطوفن عليهم بألوان الفاكهة والنقل والشراب. ثم لم يكد مؤذن الملك يؤذن بافتتاح المسابقة حتى رأى النظارة منظرًا عجيباً: رأوا فتى يقبل من بعيد يتبعه خادمه، وقد وقف على كتف الفتى طائر جميل رائع المنظر، وقد ركب الفتى حيواناً غريباً سريعاً رشيقاً خفيف الحركة يتوسط رأسه قرن وحيد. وقد انتهى الفتى إلى المدرج يلحظه الملوك والنظارة وتلحظه الأميرة ووصانقها خاصة، ومضى في تواضع حتى انتهى إلى مجلس من المدرج جلس كغيره من الناس يقوم خادمه من ورائه ويقف على كتفه طائر الجليل.

وقد ابتدئت المسابقة، فتقدم فرعون ليشد القوس فلم يبلغ من شدها شيئاً ونصح له كبير كهنته بالأيمض في هذه المسابقة التي لاتلائم الجلالة المصرية وحسبُه ما يقدم من الهدايا، وحسبُه أنه صاحب ملك مصر. ولم يكن ملك الهند

أحسن منه حظاً . وحاول ملك السيتيين أن يشد القوس فكاد يبلغ من شدتها شيئاً يسيراً ولكن قوته لم تطاوعه . وإذا الفتى يثب من مكانه ويهبط إلى الميدان مسرعاً ويتناول القوس في أدب ويشدها في رشاقة ويرسل منها إلى مقصورة الأميرة كتاباً تقرؤه الأميرة ، فإذا هو شعر جميل يتغنى بجمالها البارع . ثم يخرج الأسد وقد نكّل عن لقائه فرعون وملك الهند ، ولكن ملك السيتيين أقدم على هذا الصراع الهائل ، وكاد يصرع الأسد ولكن الحظ خانهم فهم الأسد أن يبطش به لولا أن هذا الفتى يثب مسرعاً ويهوى إلى الأسد بضربة تقذف عنقه قدماً

وقد أخذ الفتى رأس الأسد فدفعه إلى خادمه ، وغاب الخادم لحظة ثم عاد وقد غسل عن الرأس ما كان عليه من دم وانتزع نيوبه وأقر مكانها قطعاً من الجواهر لم ير الناس مثلها قط . وأخذ الفتى هذا الرأس من خادمه ودفعه إلى طائرته الجميل وكلفه أن يحمله إلى الأميرة ، والطائر يسعى في الجو سعياً رقيقاً رشيقاً حتى يبلغ مقصورة الأميرة فيضع الرأس بين يديها ويقدم إليها تحية تملأ الناظرين فتنه وإعجاباً . وقد فتن الملوك والنظاره بهذا الفتى ووقع حبه في قلب الأميرة ، وهم عظيم بابل أن يحتفى به ، ولكن رسولا يقبل فيلقى في أذن الفتى كلمات ، وإذا الفتى يكلف طائرته الجميل أن يبقى مع الأميرة ، ثم يتحول إلى حيوانه الغريب فيركبه ويعود به من حيث أتى . ويجد البابليون في اللحاق به فلا يبلغونه وقد امتلأ قلب الأميرة حباً وحناناً ، وامتلات قلوب الملوك غيظاً وحنقاً ، واختلط الأمر على عظيم بابل ، فهو لم يجد لابنته زوجاً ، وهو مضطر أن يرجع إلى الآلهة يستشيرهم فيما يصنع . والمهم هو أن الأميرة قد كلفت بالفتى ، وأن هذا الحب قد أرقها ، فهي تحدث نفسها أثناء الليل والطائر قائم إلى جانب السرير فما يروع الفتاة إلا صوت هذا الطائر يسليها ويعزيها ويواسيها في لغة بابلية رائعة . فالطائر إذاً يتكلم لغة الناس ، وهو يقص عليها قصصه ، فهو ما زال في أول الشباب ، لم يبلغ من السن إلا سبعة وعشرين ألفاً وبضع مئاة من السنين . وهو يحدثها عن هذا الفتى وعن موطنه في أقصى الهند ، وقد أشار عليها أن تلحق به ، وأشار الوحي على أبيها أن يكلفها الطواف في أقطار الأرض .

وما أريد أن ألخص القصة وإنما يكفي أن أقول إن الفتاة ذهبت إلى البصرة ثم إلى جنوب البلاد العربية ثم إلى الهند ثم إلى الصين ثم إلى أوروبا على اختلاف

أقطارها تطلب هواها في كل هذه البلاد ، وهي لا تبلغ بلداً إلا أنبتت بأن الفتى قد رحل منه إلى بلد آخر ، ثم يلتقيان ذات يوم أو ذات ليلة في باريس كما سنرى بعد حين .

وفي إلمام الفتى بأقطار الأرض وفي إلمام الفتاة بعده بهذه الأقطار عرض لما يريد فولتير أن يعرض من شؤون الأمم والشعوب ، يجد حيناً ويهزل حيناً ، يصور التاريخ مرة ويخترع الحوادث مرة أخرى ، وينقد نظام السياسة والدين والاجتماع دائماً ، ويلم بالنقد الأدبي بين حين وحين .

وليس فولتير في قصة كانديد باقل ازدراء للتاريخ والجغرافيا والحقائق المادية الواقعة منه في هذه القصة التي أشرت إليها آنفاً . فالمهم عنده إذاً ليس اتساق القصة طبقاً للمألوف من حقائق الحياة ولا طبقاً للمألوف من هذا الخيال الذي لا يريد أن يعمن في الغرابة ولا أن يغرق في الاختراع ، وإنما يصور الوقائع للناس تصويراً تألفه عقولهم وتطمئن إليه أذواقهم على نحو ما عودهم القصاص في العصر الحديث على أقل تقدير . فقولتر إذاً يذهب بقصصه مذهب الشرقيين في ألف ليلة وليلة وفي كليلة ودمنة ، وفي هذا القصص الذي يمتلىء بالأعاجيب ويقدم بالخوارق ، والذي يكثر فيه الجن وتتكلم فيه الطير ، والذي يتخذ هذا كله مع ذلك وسيلة إلى النقد والإصلاح وتصوير الحياة الاجتماعية المعاصرة بما فيها من خير وشر . فلا غرابة إذاً في أن تكون العناية فولتير بحقائق الأشخاص في قصصه ضئيلة لا تكاد تكون شيئاً ذا خطر .

ومع ذلك فهؤلاء الأشخاص يختلفون في حظهم من عناية فولتير اختلافاً شديداً ، فمنهم الأشخاص الأساسيون والأشخاص الإضافيون ، إن صح هذا التعبير ، ومنهم الرجال والنساء ، ومنهم الشباب والكهول والشيخوخ . ولكل أولئك خصال يميزون بها فيما بينهم .. فأين تقع المرأة من هؤلاء الأشخاص جميعاً في قصص فولتير ؟

هذا هو السؤال الذي كنت ألقيه على نفسي وأنا أقرأ قصصه الطوال وأقاصيصه القصار . ويخيل إلى أن في الوقوف عند هذه النماذج التي يقدمها لنا فولتير من النساء والفتيات في قصصه شيئاً لا أقول من الفائدة العلمية الخطيرة ، ولا أقول من المتعة الأدبية الرائعة ، ولكن أقول من الفكاهة والغناء اللذين قد يرغبان بعض الباحثين المتعمقين في البحث في أن يحصوا ويستقصوا ، وفي أن

بجملوا ويعلموا ، وفي أن يوافقوا ويفارقوا ، لعلهم أن يخرجوا لنا من هذا كله كتاباً قيماً يشتمل على صور رائعة في الفن والأدب .

فقصة واحدة مثلاً من قصص فولتير وهي قصة زاديج تعرض علينا صوراً من المرأة مختلفة أشد الاختلاف ، متفقة مع ذلك أشد الاتفاق . فقد همّ زاديج وهو فتى حازم حصيف قد منح طبيعة خصبة وبصيرة نافذة . وذكاء بعيداً وثقافة واسعة ، همّ زاديج أن يتزوج ، فخطب فتاة أحبها كل الحب ، وفتنت به كل الفتون ، وهي سمير . وقد خرج ذات يوم معها يتروضان في ظاهر المدينة ، وكان لها عاشق من الأمراء همّ أن يخطفها فأبلى زاديج في الدفاع عنها بلاء حسناً حتى استنقذها ، ولكن سهماً أصابه قريباً من إحدى عينيه . فلما أياس الأطباء سمير من شفائه صدمت عنه ، وقالت إنها لا تحب العور . ثم تسلى عنها زاديج وتزوج من فتاة أخرى فتنت به أشد الفتنة وكونت لنفسها في الحب رأياً صارماً حازماً . وأقبلت ذات يوم على زوجها ساخطة أشد السخط . فلما سأها عن ذلك أنباته بأنها ذهبت تعزى إحدى صديقاتها عن موت زوجها ، وكانت هذه الصديقة مشغوفة بزوجها قد ندرت الوفاء لحبه مادام الجدول المجاور لقبره يمضى في مجراه ، وقد أقامت على قبره لا تريد أن تفارقه . ولكن صاحبنا رأها تصنع شيئاً عجيباً ، رأها تحول الجدول عن مجراه لتخلص من هذا النذر الثقيل .

وقد ارتاب زاديج بقدره المرأة على الوفاء وبسخط امرأته على صديقتها ، فاحتمل مع صاحب له وفيّ ليعلم علم امرأته ، فأظهر المرض وتكلف الموت ودفن في حديقة الدار ، وأقبل صاحبه على الأرملة يواسيها فكان الحديث حزيناً أول الأمر ثم جعل يرق شيئاً فشيئاً ويعذب قليلاً قليلاً ، حتى انتهى إلى ما يشبه الحب . ثم أظهر الصديق أن نوبة شديدة من المرض قد نابتة ، فتعطف عليه الأرملة وتريد أن تطبّ له ، ولكنه ينبهاً بأن الطب له مستحيل ، فليس إلى علاجه من سبيل إلا أن يوضع على موضع الطحال منه أنف مجدوع . فتشك غير قليل ثم تقول لنفسها : وأي بأس على زوجي الفقيدي إن لقي الآلهة بأنقته كاملاً أو منقوصاً ! ثم تهبط إلى القبر وفي يدها حديدة تريد أن تجدع بها أنف زوجها الفقيدي لتشفى به طحال عاشقها الجديد ، فيهبّ زاديج وقد تبين أن زوجته التي همت أن تجدع أنفه أشد غدرًا من تلك التي لم تستطع صبراً على ما ندرت من الوفاء . فهؤلاء نساء ثلاث يعرضهن علينا فولتير في الفصلين الأولين من هذه

القصة: إرحداهن ضحت بالحب لأنها لا تطيق عشرة العوز، والأخرى همت أن تجول الجدول عن مجراه لأنها لم تستطع صبراً عن الرجال، والثالثة همت أن تجدع أنف فقيدها ولما يمحض على مؤته إلا أقصر وقت لأنها وجدت عشيقاً جديداً . وقد استيأس زاديغ من حب النساء وذهب في حياته مذاهب مختلفة لم يجن منها كلها إلا شراً . هم أن يعيش عيشة الأغنياء فوشى به في القصر، وهم أن يعيش عيشة العلاء فوشى به عند رجال الدين وتعرض للمحنة المذكورة ، ثم استبان براءته بعد خطوب ، فاختاره الملك لنفسه وزيراً . ولم تكن وزارته أقل شراً من غيرها من ألوان الحياة التي بلاها ، فقد كثر الطالبون وكثر الحاسدون ، وكثر الماكرون ، وثاب النساء إنيه من كل وجه يلحجن عليه بالأغراء حيناً والإطماع حيناً آخر ، وهو يمتنع ويرتفع ولكنه وقع في شرك الملكة ووقعت الملكة في شركه ، ونبّه الملك إلى الأمر فهم أن يقتل العاشقين ، وإن لم يصرح أحدهما صاحبه بعشق أو غرام . وقد أتيح للعاشقين من ينجنهما من هذا الكيد . فأما زاديغ فمضى نحو مصر ، وأما الملكة استارتيه فأخفيت في بابل نفسها . وقد طوّف زاديغ بالآفاق وخضع لمحن كثيرة ، ولكنه لقي في هذه المحن امرأتين أخريين ، فأما إحداها فجرت عليه شراً كثيراً ، وأما الأخرى فجرت له خيراً كثيراً . أولاهما لقيها عند الحدود المصرية تصيح وتستغيث لأن رفيقها كان يلح عليها بالضرب والعذاب ، فأسرع زاديغ لمعوتتها وكان الشر بينه وبين ذلك الرفيق فقتله زاديغ ، وإذا المرأة التي كانت تستعينه وتستغيث به قد أصبحت له عموماً تلغنه وتستعدى عليه ، وقد أقبل المصريون فأخذوه وحاكموه ، فاماتبينوا أنه لم يقتل إلا دفاعاً عن نفسه أبقوا على حياته ولكنهم باعوه من تاجر عربي كان يقيم بينهم . وهذه المرأة التي استعانت واستغاثت أول الأمر ، ثم لعنت واستعدت آخر الأمر لم تلبث أن ترى قوماً من أهل بابل قد أقبلوا يجردون ، فلما رأوها لم يشكوا في أنها الملكة الهاربة فاقتا دوها إلى بابل ، وهناك جعلت تمكر وتكيد حتى استأثرت بعقل الملك ، وما زالت به حتى انتهى إلى الجنون . أما المرأة الثابتة فعربية جميلة مات عنها زوجها ، وكان العرب قد ورثوا عن الهند أن تحرق المرأة نفسها لتلحق بزوجها الفقيد ، ولكن زاديغ مازال بالمرأة حتى صرفها عن هذا الإثم وحبب إليها الحياة دون أن يجب هو الحياة ودون أن يجب هذه المرأة لأنه لم يكن يجب إلا الملكة استارتيه : ومع ذلك

فقد غضب الكهان على راديج وقضوا عليه بالموت ، ولكن المرأة العربية عرفت له الصنعة وأزمت إيقاده ، فما زالت تمكر بالكهان واحداً واحداً ، تطعمهم في نفسها ولا تتقاضاهم على ذلك إلا براءة هذا العبد . فما ظفرت بهذه البراءة منهم منفردين ضربت لهم جميعاً موعداً واحداً ، فذهبوا إليها وكلهم مستيقن أنها ستخلص له ، ولكنهم التقوا جميعاً عندها ، فعادوا بالخزي ونجا العبد زاديج بنفسه وما كاد ينجو .

وما زال يطوف في الأرض في الهند وفي سيلان وفي البصرة وفي الشام ، وتعرض له الخطوب الكثيرة حتى لقي فيما لقي من الناس جماعة من النساء يبحثن في مرج من المروج عن حيوان غريب ، وهن رأعات الحسن بارعات الجمال ، فلما سألهن عن أمرهن علم أنهن إماء لصاحب هذا القصر العظيم ، وأن سيدهن مريض ، وقد وصف الطبيب له هذا الحيوان الخرافي الغريب على أن تجده امرأة وعلى أن يطبخ له في ماء الورد ، فأرسل إماءه للبحث عنه ووعد أيتهن ظفرت به أن تكون له زوجاً ، فهن مغرقات في البحث متهاككات في إرضاء سيدهن ، إلا واحدة قد انتحت ناحية وجلست على شاطئ النهر حزينه كثيبة تخط بعدد في الأرض . وينظر زاديج فيما تخط فإذا هي تكتب اسمه ، فيأخذه الدهش ثم يسألها ، ولا يكاد يسمع صوتها حتى يعرف استارتيه ملكته وصاحبة قلبه ، وقد تبين منها أن زوجها الملك قد قتل في بعض الحروب وأنها وقعت أسيرة في يد المنتصر مع تلك المرأة المصرية وأنها احتالت حتى نجت من أسرها ذاك ولكنها وقعت في أسر جديد ، وكلفت مع الجوارى أن تبحث عن هذا الحيوان الغريب ، فلم تبحث ولم تحفل لأنها لا تريد أن تكون زوجاً لأحد فقد امتلأ قلبها وعقلها بحب زاديج . فهذه هي المرأة الوحيدة التي عرفت الحب الصادق ووفت له واحتملت في سبيله ألوان الهول فصبرت وجاهدت واجتهدت ، كما صبر زاديج وجاهد واجتهد ، وأعاتهما المصادفات والخطوب التي لا تعيننا الآن حتى اجتمع شملهما ، فأصبح زاديج ملك بابل وعادت استارتيه إلى عرشها ولكن مع من تحب

هذه نماذج المرأة في قصة واحدة من قصص فولتير ، وفي هذه النماذج شيء من الشرق ؛ لأن القصة نفسها شرقية قد ترجمت ، فيما يقول فولتير ، لمدام دي بوميادور إلى العربية مع ألف ليلة وليلة ونقلها هو إلى الفرنسية . ولكن هذه

النماذج ليس لها من الشرق إلا اليسر المظاهر . فالنساء اللاتي يعرضهن فولتير في هذه القصة سواء منهن من ذكرنا ومن لم نذكر غريبات السيرة والتفكير يعشن جميعاً في القرن الثامن عشر الفرنسي . وأكبر الظن أن كل واحدة منهن ترمز من بعيد أو من قريب لامرأة عرفها فولتير أو عرف من أمرها القليل أو الكثير . على أننا نجد في كانديد نماذج أخرى للمرأة كلها غزبي ، اثنان منها ألمانيان والثالث إيطالي . فأما النموذج الأول لهؤلاء النساء فكونيجوند عشيقة كانديد تلك التي نشأت في إقليم ألماني في بيت مهتم كان الناس يرونه قصراً عظيماً ، بين أب سخيف كان الناس يرونه ذكياً ، وأم بدينة كان الناس يرونها رشيقة ، ومرب أحمق كان الناس يرونه فيلسوفاً . وقد نشأ كانديد في نفس القصر الذي نشأت فيه كويجوند ، وقد أحبها وأحبتة ، والتقى ذات يوم فأسقطت كويجوند منديلها والتقطه كانديد فرده إليها ، ثم التقت الشفاه واضطربت الأعين واصطكت الركب وصلت الأيدي ، ومر البارون في أثناء ذلك فوكر كانديد وطرده من القصر وخرت كونيجوند مغمى عليها .

ومنذ ذلك الوقت بدأت محنة كانديد ، ووضعت أمامه المسألة الهائلة التي وضعت أمام الانسانية كلها فلم تستطع لها ولن تستطيع لها حلاً : أقام أمر العالم على الخير أم قام أمر العالم على الشر ؟ فأما المربي الفيلسوف فقد كان يرى رأى ليبنتر وهو أن ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وأما فولتير فقد كان يشك في هذاكل الشك ، وقد اتخذ كانديد وكونيجوند والمربي بونجلوس وغيرهم موضوعاً للمحن المتتابعة ، يثبت بذلك أن العالم لم يقم على الخير المحض ، وأن الذين يقولون ليس في الإمكان أبدع مما كان إنما يقولون باطلاً من القول وزوراً . وإذا كانت كونيجوند تمتاز بشيء فأنما تمتاز بأن شخصيتها سلبية بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها ؛ فهي تحب كانديد لأنها رأت المربي يحب خادماً من خادمت الدار ويُغمى عليها حين ترى أباهاً يطرد كانديد ، وتتلقى اللطمة من أمها حين تصيق من إغمائها ، وتخضع لاستحياء البلغار حين يغيرون على المدينة ، وتخدم ضابطاً بلغارياً ثم تباع فيشتريها يهودى يحملها إلى لشبونة ، وهناك تصبح شركة بين هذا اليهودى وبين رجل من رجال الدين يرأس محكمة التفتيش . وقد مرت محن أخرى بكانديد انتهت به هو أيضاً إلى لشبونة ، ولكنه في أثناء هذه المحن الهائلة لم يكن يفكر إلا في شيئين اثنين : حبه لكونيجوند وإعجابه بأستاذه بونجلوس .

وقد لقي كونيغوند وسعد بهذا اللقاء وسعدت هي أيضاً بهذا اللقاء ، واستنقذها من اليهودى والمسيحى وفر بها إلى أمريكا ، وأراد أن يتزوجها هناك ولكنها راقت الحاكم الأسباني فاغتصبها واضطر كانديد إلى الفرار .

وقد طوّف كانديد في أمريكا ما طوف ، وطوف في أوروبا لذلك ما طوف ، لا يفكر إلا في كونيغوند ولا يحيا إلا لكونيغوند . ثم يلقاها آخر الأمر بعد خطوب كثيرة ، وإذا هي قد فقدت جمالها وأصبحت امرأة منهزمة قبيحة المنظر سيئة الخلق ، ولكنها على ذلك تعتقد أنها ما زالت في نضرة الشباب ، ولو استطاع كانديد لانصرف عنها . ولكنه رجل شريف فيجب أن يبر بالوعد ، وأن يتخذها لنفسه زوجا ، فكونيغوند هي صورة المرأة الغافلة التي لا توجد لنفسها ولا تحس وجودها إلا بمقدار .

أما النموذج الآخر فهي هذه العجوز التي لقيها كانديد في لشبونة خادماً لكونيغوند ، وهي امرأة شبيخة ضئيلة ضعيفة ، ولكنها ذكية ماهرة ماكرة نفاذة من المشكلات مدعنة لأحداث الزمان ، قد اكتسبت ذكاءها وإذعانها من المحن التي اختلفت عليها ؛ فهي إيطالية قد نشأت نشأة عز وكرامة ، ثم اختلفت عليها الخطوب ، فأسرها لصوص البحر وحمّلت إلى مراكش ثم إلى الجزائر ثم إلى تركيا ثم وقعت لهذا اليهودى فاتخذها خادماً لكونيغوند ، وأقامت معها تدبر أمرها وتنصح لها حين تبهظها الحوادث وتسليها حين تضيق عليها الحياة .

وأما النموذج الثالث فهي هذه الخادم باكيت تلك الألمانية التي ألفت أول درس في الحب على كونيغوند ، والتي لعبت بها الأحداث هذا اللعب الشائع المعروف فباعَت جسمها لتعيش . وما زالت هذه التجارة المنكرة تحملها من بلد إلى بلد ومن بيئة إلى بيئة ، حتى ضمها كانديد إلى كونيغوند حين انتهى به وبأصحابه المطاف إلى حديقته تلك التي فرغ للعناية بها على ساحل البحر الأسود . على أن قصة كانديد لم تخل من نموذج فرنسى باريسى ولكنه بالطبع نموذج سيئ ردىء ؛ فليس في هذه القصة أو لا يكاد يكون فيها إلا ما هو سيئ ردىء . وهذا النموذج الفرنسى الباريسى هو هذه المرأة التي اتخذت لنفسها لقباً أرستقراطياً وأقامت في الحى الأرستقراطى ، ولكنها في حقيقة الأمر مضطربة بين طبقة الأشراف وطبقة السوق ؛ فهي تستقبل أخلاطاً من الناس فيهم النقى الممتاز ، وفيهم الدنس المريب ، فيهم الجاهل المغرور ، وفيهم العالم المتواضع ،

وهم يجتمعون إلى مائدتها ، فيطعمون ويشربون ويلعبون ، ويقيمون حياتهم على ما يفيدون من هذا اللعب كما تقيم هي حياتها على ما تفيد من هذا الاستقبال . وآية ذلك أن كانديد لم يكذب يدخل دارها حتى أجلس إلى مائدة اللعب فحسر مبلعاً ضخماً ، ثم استمع لألوان من الأدب والنقد ، ثم دعى إلى الغرفة الخاصة ، وهناك مكثت به هذه السيدة مكرراً يكاد يخلو حتى من الرفق ، ولم يخرج كانديد من هذه الدار حتى فقد وفاءه لكونيجوند ، وفقد مع هذا الوفاء خاتماً ثميناً ، وكره باريس وفكر في الفرار منها إلى البندقية .

وقصة أخرى من قصص فولتير تعرض علينا من المرأة نماذج أخرى تخالف هذه النماذج التي رأيناها ، وهذه القصة هي قصة البريء — L'ingénu — ونماذجها كلها فرنسية لأن القصة تبدأ في بريتانيا السفلى وتنتهي في باريس ، وهي هجاء لرجال الدين واليسوعيين منهم خاصة . فالبيئة إذاً بيئة قسس ، ونحن نجد في أول القصة قسيسين ، يعيش كل منهما مع اخته . فأما أحدهما كركابون فأخته قد تقدمت بها السن حتى استياست من الزواج على كره منها لذلك شديد . وأما الآخر سانت إيث فأخته في نضرة الشباب تبسم لها الحياة وتبسم هي للحياة . وفي ذات يوم أقبلت سفينة إنجليزية ، فألقت مراسيها ونزل أصحابها فباعوا واشتروا ، ونزل معهم فتى غريب الأطوار ، ساذج إلى أقصى حدود السذاجة ، ظريف إلى أبعد غايات الظرف ، جميل الطلعة ، رائع المنظر ، حسن الموقع من القلوب ، ولم يكذب يتصل بالقس كركابون وأخته حتى أحبهما وأحياه ، ثم استكشفا بعد خطوط كثيرة أنه ابن أخ لها كان قد ذهب محارباً إلى كندا ثم انقطعت أخباره وأخبار امرأته ، وأكبر الظن أنهما قتلا وتركا هذا الصبي فنشئ في بيئة غير متحضرة ، وأقبل وقد بلغ الرشد ، ولكنه ما زال على فطرته الأولى . وقد أقام إذاً مع عمه وعمته ، وأحبه أهل القرية حباً شديداً ، وجعل عمه يتقفه الثقافة المسيحية حتى استطاع أن يعمده في حفل عظيم . وقد فتن بالأنسة سانت إيث كما فتن هي به ، وعاشت عواثق دون زواجهما ، فهو يكلف عمته عناية عظيمة ليحقق هذا الزواج . وإنه لفي ذلك وإذا الأسطول الإنجليزي يقبل مغيراً على الإقليم ، ويبيد الفتى في رد هذا الأسطول بلائاً حسناً ، يزيد إعجاب الناس به وإكبارهم له . فيرسله عمه إلى فرسايل ومعه الشهادة بحسن بلائه ليقدّم هناك إلى وزير الحرب ، ويظفر من الملك بالمكافأة على ما أبلى في الدفاع عن الوطن ،

ولعله أن يضم إلى الجيش . ولكنه يصل إلى فرسايل ولا يكاد يتصل بوزارة الحرب حتى يكون الكيد قد سبقه إلى القصر فيقبض عليه ويرسل إلى سجن الباستيل ، ويلقى في حجرة من حجراته مع رجل تقي عالم من رجال الدين فلندعه في سجنه يتعلم على هذا القس ، ويقرأ ما شاء الله له أن يقرأ من الكتب في فنون العلم والأدب والفلسفة ، ولنعهد إلى الآنسة سانت إيڤ . فقد طالت غيبة البريء على أهل القرية وانقطعت عنهم أخباره فصبروا وأجلوا الصبر ، وانتظروا وأطلوا الانتظار ، فلما كاد اليأس يبلغ منهم ، سافر عمه وعمته إلى باريس ليتحسسا من هذا الفتى الضائع أو المضاع . وكذلك فعلت الآنسة نخرجت مستخفية من القرية وسلكت طرقاً ملتوية حتى انتهت إلى فرسايل وأخوها وآخرون من أهل القرية في أثرها ، يريدون أن يردوها إلى القرية . ولكنها سبقتهم وانتهت إلى القصر ، وابتغت وسائلها من رجال الدين وغير رجال الدين حتى علمت أن حبيبها في السجن ، جددت في إنقاذه مفتنة في الجد حتى انتهت إلى رجل خطير من رجال وزارة الحرب . ولم تكد تقص عليه أمرها حتى رق لها وعطف عليها ، ولكنه فتن بها فتنة شديدة ، وإذا هو يساومها في إطلاق حبيبها من السجن مساومة منكرة ، وإذا الفتاة بين أمرين احلاهما مر : فإما ان تحرص على الشرف فتفقد حبيبها إلى آخر الدهر ولعرضه للعذاب المقيم في أعماق السجن ، وإما أن تبذل هذا الشرف فتحسر نفسها أولاً ، وتخون حبيبها ثانياً . ولكن الموظف الخطير يساوم ويغلو في المساومة ويطمع ويسرف في الإطعام ، والفتاة مضطربة أشد الاضطراب ، مترددة أشد التردد بين الشرف والهوان ، وبين الوفاء والخيانة . وقد عادت إلى الدار التي أوت إليها وعرضت قصتها على صاحبة الدار وهي سيدة وجيبة ، فرفقت بها السيدة وعطفت عليها ولم ترد أن تشير عليها أول الأمر ، وإنما نصحت لها بأن تستشير قسيساً يسوعياً . وقد عرضت أمرها على القسيس ، فسخط على الموظف الكبير أشد السخط ، ولكنه لم يكده يعرف اسمه حتى أظهر حزناً ثم تردداً ، ثم جعل يغزى ولا يغزى ، ويرغب ولا يرغب ، ولكنه أطعم الفتاة في المغفرة آخر الأمر ، وضرب لها المثل بما امتحن به بعض القديسات في الزمان القديم . وعادت الفتاة إلى أم مثواها يائسة بأئسة . ولكن هذه السيدة الوجيبة اجترأت آخر الأمر وشجعت الفتاة تصريحاً على ما شجعها عليه القس تلميحاً ، وبينت لها أن الأمور لا تقضى

في فرسايل لإيمثل هذا الثمن البشع الشنيع . وقد زلت الفتاة آخر الأمر وظفرت بحرية حبيها وبحرية رفيقه في السجن ، بل ظفرت لحبيها بالكفاة والمنصب والمستقبل السعيد . واجتمع المتفرقون كلهم ، ورضى بعضهم عن بعض إلا هذه الفتاة فلم تكن راضية عن نفسها ، ولم تكن ترى نفسها خليقة بهذا الفتى البريء الكريم ، ولكنها أنجته من السجن آخر الأمر ، وكان من الممكن أن تجتهد في كتان خطيئتها وأن تستأنف حياة نقية سعيدة لولا أن الدهر لم يرد لها حتى هذه الحياة النادمة ؛ فقد أجها الموظف الخطير ، ولم يقنع منها بما أعطته وإنما أراد أن يستريد ، فأرسل إليها الرسل والهدايا ، وكاد القوم أن يفتنوا ، وأحست هي أن أمرها قد افتضح ، فأخذتها العلة ، ولم تكذ تأوى إلى سريرها حتى أخذتها الحمى ، ثم اشتد عليها المرض واستيقنت الموت فاعترفت لحبيها وأخيها بخطيئتها . وماتت ضحية للحب إن شئت ، ولولفاء إن أحببت ، وللندم على فقدان الشرف إن أردت ، ولهذا كله ولفساد الحياة الاجتماعية كما أراد فولتير . فهذا النموذج الرائع يكاد ينفرد بين نماذج المرأة في قصص فولتير كلها . فالفتاة هنا عاملة لا مستسامة ، وجريئة نشيطة لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ، ومصممة لا تعرف تردداً ولا نكولا ، ومغامرة لا تخاف الحوادث ولا تهاب الخطوب . ثم هي بعد ذلك شريفة وفيه ، سقطت بين الشرف والوفاء ، وأدت حياتها ثمناً لهذه السقطة ، وأنقذت بعد ذلك رجلين كريمين من عذاب متصل مقم .

وفي هذه القصة نموذجان آخران من نماذج المرأة الفرنسية كما صورها فولتير : أحدهما هذه الأنسة كركابون شقيقة القس وعمة البريء تلك التي تقدمت بها السن وأكرهت على حياة فيها كثير جداً من الخشونة والضيق ، وحرمت لذة الزواج ولذة الأمومة فقبلت هذا الحرمان راضية كارهة ، إن صح هذا التعبير . راضية لأنها لم تر ولم تصطنع الحيلة ، لتظفر بما حرم عليها ، ولم تتورط في الخطيئة لا عن عمد ولا عن غفلة ، وإنما احتفظت بالطهر والنقاء . وكارهة لأنها لم تر الشباب إلا ذكرت شبابها الضائع ، ولم تسمع ذكر الحب والزواج إلا أسفت في تجمل لأنها لم تأخذ بحظها منهما . ولم تكذ ترى الفتى البريء حتى غمرته بما كان مكظوماً في قلبها من عواطف الأمومة . والنموذج الآخر هو هذه السيدة الباريسية الوجيبة التي آوت الأنسة سانت إيڤ ، والتي لم تجرؤ على أن تشير عليها

إلا بعد أن أشار القسيس . ثم تشجعت فنصحت للفتاة بأن تقبل الحياة كما هي وبأن تسير سيرة غيرها من النساء حين يحتجن إلى الاتصال بأصحاب الجاه . هذه السيدة تصور المرأة العملية في الحياة الفرنسية العامة أثناء القرن الثامن عشر ، فهي لا تهالك على الأثم راغبة فيه ، ولكنها مع ذلك لا تتخرج من الإيم حين تدعو إليه المنفعة . وهي على ذلك تحتفظ بما ينبغى للمرأة الكريمة من مظاهر الوفاق والارتفاع عن الدنيا .

وكذلك نرى فولتير في هذه القصة يعطينا صوراً ثلاثاً من المرأة : فأما إحداها فهي هذه الفتاة التي تصلح موضوعاً لمأساة رائعة . وأما الأخرى فهما هاتان المرأتان اللتان يلقاهما الناس في الحياة الواقعة إحداها كريمة لأنها قنعت بما قسم لها من الحياة ، والأخرى متكربة لأنها خضعت لما في الحياة من ضرورات .

وما دمننا نتحدث عن هذه النماذج الفرنسية فلنمض في الحديث عن نماذج فرنسية أخرى التمسها فولتير في أعماق إيران وفي أعماق التاريخ القديم ؛ فقد ارتفعت الشكوى إلى السماء من هذا الفساد العظيم الذي ملأ مدينة برسيبوليس وأمر ملك من الملائكة عوناً من أعوانه أن يذهب إلى هذه المدينة لستقصي أمرها ، ويرفع إليه تقريراً عنها ، فإن كان الفساد أغلب عليها من الصلاح دمرها تدميراً ، وإن كان الصلاح أدنى إليها من الفساد خلى بينها وبين البقاء . وقد ذهب هذا العون إلى المدينة فاختر أمرها كله ، فكان يسخط أحياناً حتى يرى فيما بينه وبين نفسه أن هذه المدينة يجب أن تمحق محقاً ، وكان يرضى أحياناً أخرى فيرى أن هذه المدينة يجب أن تستمتع بالبقاء . وواضح جداً أن مدينة برسيبوليس هي في أكبر الظن باريس . فأكثر عيوبها وأكثر محاسنها هي الخصال التي كانت باريس تمتاز بها ، بل التي كانت فرنسا كلها تمتاز بها في عصر فولتير . وقد عرض علينا فولتير فيما عرض من شؤون هذه المدينة ، شؤون السيدات الحسان اللاتي كن يستقبلن في دورهن ، ويذهبن إلى الملاهي والمسارح ، ويختلفن إلى المعابد والحدايق والمتزهات ، ويجمعن إلى جمال الخلق وحسن الشارة والبراعة في الزينة رقة القلب وعذوبة الحديث ودقة الإحساس والتسامح فيما يتصل بالسيرة والاخلاق ، ويظفرن مع ذلك بسماحة الأزواج وتلفظهم وإغضابهم حين يحسن الاغضاء . وربما كان أصدق تصوير لهؤلاء

النساء قول إحداهن لهذا العون ، وقد أظهر الخوف والجزع حين رآها تسرف في خيانة زوجها : إني لأحب أحداً كما أحب زوجي ، وإنه لا يجب أحداً كما يحبني ، وإني أضحي في سبيله بكل شيء إلا بخليلته . وأظنك قد عرفت أني أشير إلى تلك القصة الرائعة التي سماها فولتير الدنيا على علاتها — Le monde comme il va — على أن هذه النماذج من المرأة الباريسية لم تصور في هذه القصة وحدها ، وإنما صورت في قصة زاديغ ، فالباقيات اللاتي يختلفن على القصر ويحاصرن مكتب الوزير ، ويتناجين ويتناغين ويتساعين بالكيد والنميمة فيما يتبادلن من زيارات لسن في حقيقة الأمر إلا نساء الطبقة الممتازة في باريس وفي عواصم الأقاليم .

وأريد الآن أن أعود إلى أميرة بابل تلك التي تركتها تجوب أقطار الأرض ساعة في أثر عاشقها ذاك الجميل . فقد صورت بعض شخصيتها ولم أصور بعضها الآخر ؛ لأنني كنت أتحدث عن هذه القصة أثناء العرض العام لمذهب فولتير في القصص . وأحب الآن أن أصور لك هذه الفتاة كما عرضها علينا فولتير ، فهي محبة صادقة الحب ، جريئة بعيدة الجراءة ، مغامرة شديدة المغامرة ، تشبه في ذلك الأنسة سانت إيڤ في قصة البريء ، ولكنها أميرة سيؤول إليها ملك عظيم هو ملك بابل ، فقد نشئت إذاً كما ينشأ الأميرات ، فيها إترافهن وما يستتبعه الإتراف من الرقة واللين ، ومن الضعف والفتور ، ولكن فيها مع ذلك طموح ساذج إلى إرضاء هذا الحب الذي ألقاه القتي في قلبها . وهي تريد أن ترضى هذا الحب لأنها تعودت أن ترضى كل حاجاتها ، وأن تبلغ كل ما تريد . ولكنها على ذلك مترددة ما دامت في ظل أبيها الملك ، وما دامت خاضعة لنظم القصر وتقاليده ، فكل خصالها كامنة في قلبها كما تكمن النار في العود أو كما يكمن الرحيق في العنقود ، فيما يقول ابن الرومي . فإذا أذن لها الملك في الحج إلى معبد البصرة ، وإذا خرجت من المدينة ومعها طائرها ظهرت هذه الخصال كلها ، وإذا الفتاة محبة لا تعرف إلا الحب ، عاشقة لا تعرف إلا العشق ، مفتونة لا تفكر إلا في صاحبها ، وفي أن من حقها ومن الحق عليها أن تراه . ولكن الظروف لا تواتيها ، وإنما تخلق لها مشكلة يسيرة غريبة في وقت واحد ، وهذه المشكلة هي التي ستدور عليها القصة كلها .

فقد انصرف الملوك من بابل مغضبين . فأما فرعون وملك الهند فقد تحالفا

وتم الاتفاق بينهما على أن يعودا إلى بابل غازيين كلاهما يقود جيشاً قوامه ثلاث مئة ألف من الجند ، حتى إذا تم لها النصر اقتريا أيهما يظفر بالأميرة . وأما ملك السيتيين فقد اختطف ابنة عم الأميرة ومضى بها تحت الليل إلى مملكته فاتخذها لنفسه زوجاً وأزمع أن يعود إلى بابل غازيا ليرد إلى زوجته عرش بابل الذي غصب منها غضباً . وكذلك أراد ملك بابل أن يزوج ابنته الأميرة فورموزنت جراً على نفسه وعلى ملكه شراً مستطيراً . وقد مضت الأميرة فورموزنت مع طائرها وتزلت في طريقها إلى البصرة بفندق من الفنادق ، وإذا فرعون قد نزل في هذا الفندق نفسه ، وإذا هو يتعجل الفور وينتهر القرصة ويدخل على الأميرة في غرفتها فيعلن إليها في صلف وغلظة أنها قد أهانتها في قصر أبيها وأنه قد ظفر بها الآن فسيتها على حكمه وسيكرهما على أن تشهد معه مأددة الغداء . وهنا تظهر مهارة الأميرة وسعة حيلتها ، فتظهر لفرعون أنها لم تحب أحداً غيره ، وأن الحياء والخوف هما الذان منعاهما من إظهار حباها ، وأنها حين تقبل دعوة الملك إلى الغداء لا تنزل على حكمه وإنما تنزل على حكم الحب الذي ملأ قلبها فتونا . وهي بهذا الحديث قد فتنت فرعون وأزلته هو على حكمها . وقد اتفقت معه على الغداء ورغبت إليه في أن يمنحها ساعة أو ساعتين لتصلح من شأنها استعداداً لهذه السعادة . ولم تكذب تخلو إلى نفسها حتى دعت وصيفتها وطبيبتها وتقدمت إليهما في أن يسقيا الملك وأعوانه وجنده إذا كان الغداء من نبيذ شيراز على أن يدسا في هذا النبيذ مخدراً يدعو إلى النوم فلا يرد النوم له دعاء . ولم يكذب القوم بمضون في غداهم وفرعون يداعب الأميرة حتى كانوا قد شربوا فأسرفوا في الشرب ، وحتى كان نبيذ شيراز قد أغرقهم وأغرق الجند معهم في نوم عميق . هنالك انسلت الفتاة وحاشيتها ، ولكنها لم تمض إلى البصرة لتنفذ أمر أبيها فقد نسيت أباه وأمره والبصرة ، وإنما مضت إلى أقصى الهند لتلمس عشيقها أمازان . وقد بلغت أقصى الهند ، ولكنها لم تلق الفتى وإنما لقيت أمه محزونة بأسة ، وعرفت منها أن طائراً ما كراً قد شهد غداها مع فرعون وأنبأ به الأمير فرآه خيانة بغضت إليه الحياة فأزمع أن يطوف في أقطار الأرض يلتمس الغزاء عن حب هذه الخائنة ، وشرط على نفسه أن يكون وفيّاً لهذه الخائنة إلى آخر الدهر . وكذلك نشأت العقدة ، فالفتاة بريئة أمام نفسها وأمام الحق ، ولكنها خائنة في رأى حبيبها . وهي تريد أن تطلبه حيثما كان لتظهره على براءتها

من هذه الحيانة ولتستأنف معه هذا الحب السعيد . وقد تبعته إلى الصين فعرفت أنه أقام في قصر الملك أياما ، وكاد يطيل الإقامة لولا أن أميرة من أهل القصر فتنت به وراودته عن نفسه فأبى عليها وفر منها وترك لها كتاباً رقيقاً يعتذر فيه من هذه الغلظة لأنه يجب أميرة بابل وقد أقسم أن يظل وفيّاً لها إلى آخر الدهر . فلا تكاد الأميرة تقرأ هذا الكتاب حتى يجن جنونها وحتى تلاحق حبيها في كل مكان . وهي لا تصل إلى مدينة إلا عرفت أن الفتى قد تركها رافضاً حباً يعرض عليه حتى طوفت في أثره أوربا كلها وكادت تلحقه في إنجلترا ، ولكنه عاد في الوقت الذي كانت تعبر فيه البحر من هولندا إلى بلاد الانجليز .

على أنها أدركته آخر الأمر في باريس ، ولكنها أدركته على شر حال . فهذا الفتى المتيم الذي قاوم الأميرات في جميع قصور الأرض لم يستطع أن يقاوم باريسية ، وأى باريسية ؟ ممثلة من ممثلات الأوربا . رأى تمثيلها وسمع غناءها وأحب أن يقدم إليها . فلما عرفها وقع في الشرك . وتأتى أميرة بابل فتري هذا الفتى وهذه الممثلة على شر حال . وقد ضاعت الآمال وانهارت قصور الأمانى واشتعلت الغيرة حتى حرقت قلب الفتاة وعقلها تحريقاً ، فهي تهجر باريس مصممة ألا ترى هذا الخائن ! وهي تذكر أباهما الآن وتذكر أنها خالفت عن أمره وتريد أن تعود إليه وتعتذر وتتوب وتثوب إلى الطاعة والخضوع ، وتعزى عن هذا الحب الذي جابت من أجله الدنيا كلها ثم آبت منه بالخيبة والحرمات . والفتى في أثرها يطلبها بعد أن كانت تطلبه ، ويلاحقها بعد أن كانت تلاحقه . وقد أدركها آخر الأمر في أسبانيا وأنقذها من محكمة التفتيش ، فكفر بذلك عن خطيئته وعادا معاً إلى بابل ، وكان الزواج وارتقى إلى العرش في خطوب لست في حاجة إلى تفصيلها . وبمقدار ما ترى عند هذه الفتاة من الإقدام والعزم ومن الجراءة والمغامرة ترى عند أميرة أخرى مصرية ما يناقض كل هذه الخصال بحيث لا يشبه إحدى الأميرتين صاحبها إلا في شيء واحد هو هذا الحب الملح الذي يضطر صاحبته إلى الصبر والوفاء واحتمال الخطوب . ولكن الأميرة المصرية صابرة وفيه لا تصنع شيئاً وإنما تتلقى ما يصب عليها من المحن في سبيل هذا الحب . وأنت تستطيع أن ترى صبر هذه الأميرة وشجاعتها السلبية وتعرضها للموت في قصة الثور الأبيض .

وأعتقد أني قد عرضت عليك من نماذج المرأة عند فولتير ألواناً تعطيك منها صوراً واضحة دقيقة . وأنا لم أعرض عليك مع ذلك نماذج أخرى أهملتها عن عمد لأنها تشبه هذه النماذج التي عرضتها من قريب أو بعيد .

وهناك أسئلة يمكن أن تخطر للذين يقرأون قصص فولتير وللذين يقرأون هذا الحديث : فهل بين هذه النماذج كلها وبين السيدات اللاتي اتصل بهن فولتير اتصال حب أو اتصال مجنون من علاقة بحيث يمكن أن نستدل بهذا النموذج أو ذلك على هذه السيدة أو تلك من صواحبات فولتير ؟ وهل هناك صلة بين هذه النماذج وبين السيدات الكثيرات اللاتي عرفهن فولتير في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وسويسرا وإيطاليا بحيث يستطيع الباحث أن يقول إن فولتير قد صور هذه السيدة أو تلك من السيدات الممتازات اللاتي عرفهن في حياته المضطربة الطويلة ؟ وهل بين ألوان الحب التي عرضها فولتير في قصصه هذه ما يشبه من قريب أو بعيد حب فولتير حين كان يحب وهيام فولتير حين كان يهيم واضطراب فولتير بين اليأس والرجاء حين كان يضطرب في الحب بين اليأس والرجاء ؟

أسئلة لا أستطيع أن أجيب عليها ولا أريد أن أجيب عليها ؛ لأنني لست إحصائياً في أدب فولتير ، بل لست إحصائياً في الأدب الفرنسي ، ولأنني لم أريد أن أقدم إليك بحثاً في التاريخ الأدبي وإنما أردت أن أقدم إليك حديثاً من هذه الأحاديث التي تدعو إلى التفكير وترغب في القراءة . وإذا كنت قد وفقت في هذا الحديث إلى أن أرغبك في قراءة هذا القصص الرائع الذي تركه لنا فولتير وفي تعمق البحث عن صور المرأة في هذا القصص فأنا راض كل الرضا إلا عن شيئين اثنين : أحدهما أني لم أحسن البحث والاستقصاء . والثاني أني كنت أريد الإيجاز فاضطرت إلى الإطالة فأتقلت بذلك على القارئ وعلى المجلة ، وشجعت بذلك الكتاب على أن يرسلوا إلينا فصولاً طوالاً كهذا الفصل الطويل . وأى بأس على الكتاب إذا ذهبوا في الثروة مذهب رئيس التحرير .

طه حسين